السليقة اللغوية

د . أحمد جلايلي
جامعة ورقلة

توطئة:

كثيرا ما يتداول مصطلح "السليقة" على ألسنة الدارسين للغة العربية، فيقال: إنه يتكلم اللغة العربية عن سليقة. ويرادف مصطلح "السليقة" هنا الفصاحة، أو عدم التكلف في صناعة الكلام الفصيح. أو بمعنى أنه يصنع المتكلم الجمل صناعة عجيبة.

فهل هذا هو المعنى الذي تحمله المعاجم في مفرداتها واصطلاحاتها ؟ وهل هو المعنى نفسه الذي يُقِرُّهُ العلماء القدامى والمحدثون لمصطلح "السليقة"؟

أولا : مفهوم السليقة عند القدماء:

أ . **السـليقة فـي اللغـة:** "السليقة" على وزن "فَعِيلَة". وقد كثر وَزْنُ "فَعِيلَة" في اللغة العربية، ومما ورد على صيغتها الصرفية: «قولهم: (الطبيعة)، وهي من طبعت الشيء، أي: قرَّرته على أمر ثبت عليه، كما يطبع الشيء كالدرهم والدينار، فتلزمه أشكاله، فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله»[1].

ومنها أيضا: « (النَّحِيتَة)، وهي "فَعِيلَة"، من نَحَتُّ الشيءَ، أي: مَلَّسْتُه وقرَّرْته، على ما أردته منه، فالنحيتة كالخليقة» .

ومنهـا: « (الغريزة)، وهـي "فَعِيلَة" مـن (غَـرَزْت)،كمـا قيـل لهـا طبيعـة، لأن طبـع الـدرهـم ونحـوه ضَـرْبٌ من وسْمِه، وتغريزه بالآلة التي تثَبِّتُ عليه الصورة، وذلك استكراه له وغمز عليه كالطبع»[2].

ومنها أيضا: «"السَّجِيَّة"، هي "فَعِيلَة" من "سجَا" "يسجو"، إذا "سكَنَ"، ومنه: طرف ساج، وليل ساج، قال:

يا حبذا القمراءُ والليل الساجْ وطُرُقٌ مثلُ ملاءِ النَّساجْ[3]»

ومنها « (السَّليقة) وهي من قولهم: فلان يقرأ بالسليقة، أي: بالطبيعة، وتلخيص ذلك أنها كالنحيتة، وذلك أن السَّليق ما تَحَاتَّ من صغار الشجر، قال الشاعر:

تسمع منها في السَّليق الأَشْهَبِ معمعة مِثْلَ الآبَاءِ المُلهَبِ»[4].

ومنه قول الله سبحانه: **[سَلَقُوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدَادٍ]** [5].

ومنـه حـديث عليٍّ ــ رضـي الله عنـه ــ : « ذاكَ الخَطِيـبُ المِسْـلَقُ الشَّحْشَـاحُ». يقال: مسلق ومسلاق، إذا كان نهاية في الخطابة[6].

وجـاء في كتـاب"النهايـة في غريـب الأثـر " أن أبـا الأسـود « وضـع النحـو حـين اضطرب كلام العرب وغُلِبَتْ السَّلِيقَةُ» [7]. أي: اللغة التي يسترسل فيها المتكلم بها على سليقته، أي :سجيته وطبيعته من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن. ومنه قول الشاعر[8]:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيّ يَلُوْكُ لِسَانُهُ وَلَكِنْ سَلِيْقِيٌّ أَقُوْلُ فَأُعْرِبُ"

أي أجري على طبيعتي ولا ألحن.

مـن خـلال تأمـل القـارئ في المعـاني المتنوعـة السـابقة لكلمـة "السـليقة" المبثوثـة في المعاجم اللغوية يمكن حصرها في الدلالات الآتية، وهي: الطبيعة والخَلِيقَةَ والسَّجِيَّة.

وجمعت هذه الدلالات الثلاث في قول ابن منظور وهو: «الخَلِيقةُ : الطَّبِيعة التي يُخلَق بها الإنسان. والخِلْقةُ: الفِطْرة ... والطَّبِيعة والخَلِيقةِ والسَّلِيقةِ بمعنى واحد».[9]

و يقول ابن جني أيضا : « فلان يقرأ بالسليقة. أي : بالطبيعة »[10].

وأمـا البنيـة الصـرفية لكلمـة"السـليقة" فهـي مـن "فَعِيلَـة"، وتنسـب الكلمـة، أي : "السليقة" في الفصيح على وزن "فَعَلِيّ"، أي: سَلَقِيّ". وربما شذ من ذلك الشيء القليل فلم تحذف ياؤه، فقالوا في السليقة: سَلِيقِيّ[11].

وفي هـذه القاعـدة الصـرفية يقـول ابـن مالـك: (وَفَعَلِيٌّ فِي فَعِيْلَةَ الْتُزِمْ). أي: التزم في النسبة إلى فَعِيلَة بحذف التاء والياء وفتح العين،كقولهم في النسبة إلى... السليقة سَلَقِيّ.

"والسَّـلِيقِيُّ الـذي يـتكلم بأصـل طبيعتـه مُعْرِبـاً، مـن غـير تعثـر ولا تلعـثم، ومـن الشواهد الشعرية التي دلت على شذوذ اللفظة قول الشاعر[12]:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيّ يَلُوْكُ لِسَانُهُ وَلَكِنْ سَلِيْقِيٌّ أَقُوْلُ فَأُعْرِبُ"

فالشاهد في البيت الشعري كلمة(سَلِيقِيّ) التي وردت شاذَّةً ومُنبِّهةً على الأصل المرفوض فيها.

ب . السليقة في الاصطلاح :

ليس بعيدا أن يكون مفهوم السليقة عند بعض العلماء المسلمين قديما مبنيا على ثقافتهم الدينية التي يُدافع عنها بعضهم، اعتمادا منهم على نصوص نقلية ثبتت في المصادر الإسلامية، مفادها أنَّ اللغة توقيف من الله. ولذلك قالوا : "الخَلِيقةُ : الطَّبِيعة التي يُخلَق بها الإنسان. والخِلْقةُ: الفِطْرة ... والطَّبِيعة والخَلِيقةِ والسَّلِيقةِ بمعنى واحد[13]. وقالوا أيضا: " فلان يقرأ بالسليقة. أي : بالطبيعة"[14].

وكـان مـن أكـبر العلمـاء المسـلمين المـدافعين عـن هـذا الـرأي أبـو علـي الفارسـي (ت377هـ)[15]، وأحمد ابن فارس (ت395 هـ)، حيث قال ابن فارس باللفظ الصريح:« إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: [وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا] [16]، فكان

ابن عباس يقول: « عَلَّمَهُ الأسماءَ كُلَّهَا ، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناسُ من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[17].

فهذا ابن فارس اللغوي يؤكد أن اللغة العربية الفصحى توقيف من لدن الله. بل يذهب إلى أن الإنسان عاجز عن وضع اللغة، ولولا أن لم يعلمه الله إياها ما كان الخطاب والتواصل بين الإنسان بالكلمة. والبيّنة عنده هو عدم الاحتجاج بلغة غير الفصحاء، بدءا من لغة أهل القرن الرابع الهجريّ، لِمَا فيها من لَكْنٍ ورَكَاكَةٍ[18]. بل يذهب ابن فارس إلى أكثر من ذلك ويقول: إن اللغة نزلت على آدم بما كان يحتاج إليه زمانه، ثم انتشرت بعده مع الأنبياء العرب إلى أن انتهى أمرها مع محمد . عليه الصلاة السلام . وكل لفظ أحدث بعد الرسول هو مُخْتَلِفٌ وليس من لغة العرب. ودليله أنه لم يثبت عند فصحاء العرب أنهم اصطلحوا على تسمية شيء، ولم يثبت هذا أيضا عن الصحابة رضي الله عنهم[19].

وذهب ابن فارس إلى أبعد من ذلك فقال: إن الخط العربي توقيف من الله[20]، وإنَّ عِلْمَيْ النحو والعروض من العلوم العربية القديمة التي اندثرت بطول الزمان، ثم تجددت في زمان إيقاظ همم الرجال والعلماء، أمثال: أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي[21], غيرهما.

وسار القرطبي على منهج ابن فارس في إثبات اللغة توقيفا، إذ يقول: إنَّ «تعليمه هنا إلهام وعلمه ضرورة، يحتمل أن يكون بواسطة مَلِكٍ، وهو جبريل_ عليه السلام_»[22].

وإذا كانت اللغة توقيفا_ كما يراه هؤلاء العلماء _فذلك يعني أنَّ "السليقة" بمعانيها المبثوثة في المعاجم اللغوية القديمة والتي منها: الطبيعة والخليقة والسجية هي نشاط لغوي مفروض على الفرد بالوراثة، أو هي عملية تواصلية بين الإنسان، من خلق الله، ليس للبشر فيها إضافة أو صناعة. أو بمعنى آخر فاللغة في مفهوم هذا التيار سلوك بشري جامد، لا يتطور بتطوُّرِ الحياة، وليس للفرد اختيار في تغييره وتهذيبه.

وقد يستقيم الحديث عن "السليقة" واللهجات ويتجلى إذا قوبلت اللغة الرسمية في قطر ما بتعدد اللهجات في هذه اللغة الرسمية. وهذا ما ينطبق على "السليقة" التي يتحدث عنها العرب في كتب التراجم والطبقات القديمة، فهي عندهم تلك اللغة التي يتداولها أبناء

القبيلة الواحدة لتكون أداة للتواصل بينهم من غير مشقة في الاستعمال. أو هي ذلك النشاط اللغوي المفروض على الفرد والأسرة والقبيلة التي نشأ فيها، ما دام ذلك الفرد العربي حبيس لهجته في بيئته وبين أفراد قبيلته، لا يخالط ألسنة الأعاجم في زمن الفصاحة. وعليه فالسليقة هي تقليد لغويٌّ لأفراد الجماعة المنتسب إليهم ذلك الفرد العربي السليقيُّ داخل القبيلة الواحدة، إن وافقنا على وجود لهجات، بل على لفائف لغوية تنتمي كلها إلى اللغة الأم.

ومِنْ ثَمَّ فالسليقة هي التواصل بين أفراد القبيلة بإحدى اللهجات العربية الفصحى من بيئة محدودة، ومن غير تعلُّم ولا دُرْبَة، أو بالأَحْرَى هي استعمال لغويٌّ وِرَاثِيّ، يسترسل فيه المتكلم لغته على سجيته وطبعه، من غير تَعَمُّدِ إِعْرَابٍ ولا تَجَنُّبِ لَحْنٍ. أو هي توظيف سهل من غير معاناة أثناء عملية الأداء اللغوي. بل إن السليقة هي عملية تواصلية من غير شعور أو إدراك لقواعد اللغة المستعملة.

وإذا كانت اللغة العربية هي مجموعة من اللهجات فإن السليقة اللغوية كانت أيضا مجموعة من السلائق. فلم تكن اللغة العربية الفصحى السليقة الوحيدة لكل العرب في زمن الفصحى التي نزل بها القرآن وقَعَّدَ لها النحاةُ. وهو ممَّا يُبْعِدُنَا عن الشكِّ في " أنَّ قبائل البادية جميعها كانت تتعامل بلهجة واحدة، أو تتكلم الفصحى الموحدة في حياتها اليومية"[23]. اللهم إلا إذا سلَّمْنَا بوجود لغة رسمية، أو ما يسمى باللغة الأدبية، التي يتم التعامل بها في المناسبات والخطاب العام للناطقين بهذه اللغة الأم، كلغة القرآن الكريم، أو لغة الشعر العربي القديم.

وفي تَعَدُّدِ هذه اللهجات قال سيبويه: "...مثل ذلك قوله عز وجل :(مَا هَذَا بَشَرا). [24]، في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلاَّ مَنْ دَرَى كَيْفَ هِيَ في المصحَفِ"[25]. وكذلك قال أبو منصور الأزهري في شأن أهل السليقة: "إن البدوي إذا قرأ بطبعه ولغته لم يَتَّبِعْ سُنَّةَ قِرَاءَةِ أهل الأمصار"[26].

وتلك القصة التي يرويها ابن جني في شأن الأعرابي الذي قرأ كلمة (طُوبَى) ـ بكسر الباء ومدِّ الياء ـ في الآية القرآنية [طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ][27]. على سجيته لَتُمَثِّلُ الوجهَ

الصحيح لمفهوم السليقة عند العرب الأوائل، حيث يقول: "قَرَأَ عَلَيَّ أعرابيٌّ بالحَرَمِ [طِيبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب]، فقلت: (طُوبَى)، فقال: (طيبى). فأعدت فقلتُ:(طوبى). فقال: (طيبى)، فلما طال عَلَيَّ قلت: (طوطو)، فقال: (طي طي)، أفلا ترى إلى هذا الأعرابي وأنت تعتقده جافيا كزًّا، لا دَمِثًا ولا طَيِّعًا، كيف نَبَا طبْعُهُ عن ثقل الواو إلى الياء، فلم يؤثر فيه التلقين، ولا ثَنَى طبْعَهُ عن التماس الخفة هَزٌّ ولا تمرينٌ، وما ظنك به إذا خُلِّى مع سَوْمِهِ وتساند إلى سَلِيقَتِهِ وَنَجْرِهِ"[28].

ويقول ابن جني في هذا الشأن أيضا:"وسألتُ يوما أبا عبد الله محمد بن العَسَّافِ العُقَيْلِيِّ الجُوثِيّ التميمي . تميم جوثة . فقلتُ له: كيف تقول : "ضَرَبْتُ أَخُوكَ". فقال: أقول: "ضَرَبْتُ أَخَاكَ". فأَدَرْتُهُ على الرفع ، فَأَبَى، وقال: لا أقول:" أَخُوكَ أَبَداً ". قلتُ : فكيف تقول: "ضَرَبَنِي أَخُوكَ". فرفع. فقلتُ : أَلَسْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ لاَ تَقُولُ: "أخوك أَبَداً " ؟ فقال: "إِيشٍ هذا !! اختلفتْ جِهَتَا الكلامِ "[29].

فالنَّصَّانِ الواردان في "خصائص" ابن جني يَدُلاَّنِ على أن العربيَّ كانت تُؤَثِّرُ في لسانه لهجةُ القبيلة، مما يجعله لا يَحِيدُ عمَّا رَسَمَتْهُ فيه سليقته. "ذلك أنَّ الأعرابيَّ الفصيح إِذَا عُدِلَ به عن لغته الفصيحة إلى لغة سقيمة عَافَهَا ولم يَبْهَأْ بها"[30].

ففي النص الأول اِنْحَازَ الأعرابي إلى لهجته، وهي قراءة (طِيبَى) بدلا من (طُوبَى) ، مع مخالفتها لما ورد في المصحف. وفي النص الثاني أَبَى الأعرابيُّ أيضا أن يرفع "أَخُوكَ " من جملة "ضَرَبْتُ أَخَأَكَ"، ذلك لأنَّ سليقَتَهُ تأباهُ. " بَيْدَ أنه لو أراد إلى الموافقة لَفَعَلَ، فليس ثمة ما يَحُولُ دون ذلك ، وليس صحيحا أنه قد نبا عنها طَبْعُهُ، بل نبا عنها قصده، ولو أراد أن يتعلمها لكان له ما أراد"[31] .

ولعلَّ تمسُّكَ هؤلاء الأَعْرَابِ بلهجاتهم وتأملهم مواقع الكلام، وإعطائهم إيَّاه حصتَه من الإِعْرَابِ عن ميزة وعلى بصيرة هو الذي جعل بعضا من العرب يعتقدون أن السليقة اللغوية موروث، يمتد من الدم والجنس العربيِّ، لا من التعلم والمِرَان [32].

ثانيا : مفهوم السليقة عند المحدثين:

استخلص الباحثون المحدثون من التعريفات التراثية للسليقة أنها كانت تعني الخليقة والطبيعة والسَّجِيَّة. ومراد اللغويين القدامى من ذلك أن الألفاظ: (السليقة، الخليقة، الطبيعة، السَّجِيَّة) فوضى متساوية في المعنى. ولكن وحدانية المعنى للمقولات السابقة لم يرض عنها المحدثون، فرأوا أن لكل لفظ معنى قائما بنفسه.

ومن أجل هذا يذهب إبراهيم أنيس إلى أنَّ الطفل في عملية التعلم الأولى للغة يشعر باختلاف الكلمات وبتراكيب الأصوات، وكلما تراكمت أيامه تراكم رصيد لغته، وهكذا إلى أَنْ تَتِمَّ مَراحِلُ نُمُوِّ اللغة عنده، فيصير الفرد قادرا على الاسترسال في الكلام، وعلى ما سبق يكون الطفل قد مَلَكَ السَّليقَةَ اللغوية.

ويَخْلُصُ إبراهيم أنيس ـ بعد تأمل هذه المراحل جميعها ـ إلى أَنَّ السليقة هي أَدَاءٌ لُغَوِيٌّ يَتِمُّ في تطوُّرٍ وتَدَرُّجٍ ويُسْرٍ، من غير عُسْرٍ وتَكَلُّفٍ، ودون أَنْ يشعر المتكلم بخصائص لغة الكلام. ولا فرق بين السَّلِيقِيِّ وغيره إلا في درجة الإتقان [33].

ومن أجل تهديم نظرية السليقة التقليدية والموروثة ذهب تَمَّام حَسَّان يُحَدِّد للخليقة معنى اصطلاحيا يقابل معنى السليقة، بحيث يهدف تحديد المعنى إلى تخصيص معنيين مختلفين لكل من السليقة والخليقة.

فقال في وصفهما: "الخَلِيقَةُ هي تَلَبُّسُ الإنسانِ بطبيعته الناطقية في خلقه وتكوينه، أي: من حيث هو إنسان مجبول على استخدام اللغة أية لغة... ويحدد له اللغَةَ التي يتكلمها ما يصادفه من ظروف النشأة والاكتساب، وهي الظروف التي تتصل بالسليقة لا بالخليقة. أما السليقة فهي اكتساب اللغة في مرحلة خاصة من حياة الإنسان، أي: تَعَلُّمُ الطِّفْلِ لغَةَ أُمِّهِ..."[34].

فرؤية تَمَّام حَسَّان للسليقة اللغوية هي أشبه باكتساب العادات التي يجنيها الفرد من احتكاكه بغيره في حياته. فالسليقة عنده هي عملية نُمُوٍّ مستمرة في تعلم اللغة، ما دام الفرد حيا في الجماعة التي ينتمي إليها[35].

وإذا كان بعض العلماء ومنهم تَمَّام حَسَّان وآخرون يرون أَنَّ اللغة هي سلوك اجتماعيٌّ، فَإنَّ اللغوي تشومسكي يرفض القول بأنَّ الاكتساب اللغوي للطفل سلوكٌ اجتماعيٌّ، "كما يرفض تفسير قدرته اللغوية تفسيرا آليا، لأن كل إنسان عنده يمتلك معرفة ضمنية بقواعد كلية، ومن خلال سماعه جمل محيطه يبني الطفل بصورة خَلاَّقَةٍ قواعِدَ لغتِهِ، فاللغة ليست في الحقيقة مجموعة عاداتٍ كَلامِيَّةٍ" [36].

فالطفل عند أنصار التوليديين والتحويليين مهَيَّأٌ لإتمام عملية الكلام, فهو يمتلك في ذاته كفايَةً تتلَقَّى المظَاهِرَ اللغويَّةَ التي يسمعها من عائلته وفي بيئته، ويقوم بتحويلها إلى كلام مختلف عن كلام الكبار. وهؤلاء يؤكدون أن اكتساب اللغة تطوُّرٌ بيولوجيٌّ لا علاقةَ له بالذكاء، ولا علاقة له أيضا بجنس معين أو بلغة معينة[37].

ويمكن مما سبق أن ندعي القول بأنَّ السليقة في زماننا هذا تعني ما يتعلمه الفرد من لغة في مجتمعه، ونقصد اللغة العربية العاميَّة، أو لغة التعامل اليومي، والتي تتفرع هي نفسها إلى مجموعة من اللهجات العربية العامية، إنْ على مستوى قطر بعينه، أو على مستوى الأقطار العربية جميعها. فهي سليقتنا اليوم، لأنها اللغة التي ينطقها الإنسان العربيُّ بيسر، من غير أن يشعر بعبء وصعوبة أثناء النطق، ومن غير أن يكون على وَعْيٍ بخصائصها وأسرارها، لا سيما مستوياتها الثلاث: الصوت والصرف و النحو.

ومن أجل ذلك فاللغة العربية الفصحى في مجتمعاتنا اليوم ليست بلغة السليقة، لأنها لغة تكتسب بالتعلم والتدريب والتكلف، سواء كان تعلمها في البيت أو المدرسة أوفي غيرها من معاهد التعليم, ولذلك يَقِلُّ عَدَدُ الناطقين بها في العالم العربي، كما يتفاوَتُ المتحدِّثُون بها في درجة إتقانها، بل يستحيل علينا في زماننا أن ينطق العَرَبُ كلُّهُم اللغةَ العربيَّةَ الفصيحة بالسليقة عن طريق المحاكاة، وفقا لاعتبارات مختلفة وكثيرة .

وعلى الرغم من اختلاف الفصحى والعامية فإنَّ اللغة العَامِّيَةَ تشبه سليقة القدماء من حيث إنها لا تسلم من اللحن أو التعثر، فإن العرب الفصحاء أنفسهم قد خالفوا القياس واستعملوا الشذوذ، مع أنهم كانوا أهْلَ السليقة الأولى [38].

ومن الشذوذ في سليقة القدماء . إن لم نقل اللحن . ما أخذه عبد الله بن أبي إسحاق على الفرزدق ، في مدح يزيد بن عبد الملك:

مستقبلين شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بحَاصِبٍ كنَديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

على عَمَائِمِنَا تُلْقَى و أرحُلُنا على زواحفَ تُزْجَى مُخُّهَا رِيرِ

فقال ابن أبي اسحاق : أَسَأْتَ، إنما هي (ريرُ)، بالرفع ، فلما أَلَحُّوا على الفرزدق أَصْلَحَها ، وقال في عجز البيت: (على زَوَاحِفَ تُزْجِيها مَحَاسِيرِ) .[39]

ولقد ضاق الفرزدق بانتقادات الحضرمي ، فقال يهجوه:

ولَوْ كانَ عبْدُ اللهِ مَوْلَى هَجَوْتُهُ ولَكِنَّ عَبْد اللهِ مَوْلَى مَوَالِيَا[40]

وإنْ كان عبدُ اللهِ بنُ أبي إسحاقَ لا يستحق أن يُهْجَى في رأي الفرزدق . لأنه أعجميٌّ وابن أعجميٍّ، وهو مولى لآل الحضرمي، وآل الحضرمي موالي لبني عبد شمس . فإنه لم يُحْرَجْ بهذا الردِّ، وتتبع أخطاءه في البيت الذي هجاه به، وقال: لقد أخطأت أيضا، وكان ينبغي أن تقول: مولى مَوَالٍ، لأنَّ الاسم المنقوص إذا كان نكرة غير مضاف تحذف ياؤه.

وكذلك قيل : سمع ابْنُ أبي إسْحَاقَ الفرزدقَ يُنْشِدُ:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ مِنَ النَّاسِ إلاَّ مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

فقال ابن أبي إسحاق: على أي شيء ترفع (مُجَلَّفُ) ؟ فقال: على ما يَسُوؤُكَ ويَنُوؤُكَ ، علينا أَنْ نَقُولَ، وعليكم أن تُعْرِبُوا[41].

وكثرت انتقادات النحاة للشعراء، وكانوا يغضبون، وصاروا يَثْأَرُونَ لأنفسهم بشعرهم وعن سليقتهم، ويوجهون إلى النحو والنحاة أقسى النعوت وأعظم السخريات.

ومن سخرية الأعراب على النحاة قَوْلُ الأعرابيِّ في الردِّ على أبي زيد الأنصاري، إذْ ظَنَّ أَبُو زَيْدٍ أَنَّ الأَعْرَابِيَّ يريد السؤالَ عن مسألة نحوية، حينما وقف عليه وهو في حلقة التدريس، فقال له: يا أعرابيُّ، سَلْ، فقال الأعرابيُّ على البديهة شعره المبثوث في كتب الطبقات والنحو، والذي مطلعه:

لَسْتُ للنَّحْوِ جِئْتُكُمْ لاَ وَلاَ فِيهِ أَرْغَبُ

ومن السخرية بالنحاة والافتخار بالسليقة أيضا قول أعرابي آخر:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ وَلَكِنْ سَلِيقِيٍّ يَقُولُ فَيُعْرِبُ

والقصيدة التي نَظَمَهَا عَمَّارُ الكَلْبِيُّ يهاجم فيها النحاة هي دليل على غضب الأعراب، التي يقول في فاتحتها:[42]

مَاذَا لَقِينَا مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ قِيَاسِ نَحْوِهِمْ هذا الَّذِي ابْتَدَعُوا ؟

فعَمَّار الكلبي في هذه الأبيات يبدي سخطه من المستعربين الذين ليسوا فصحاء وصرحاء في العرب، وهو يعني بهذا الهجاء أبرز النحاة الذين سُلِّطُوا على رقاب الشعراء ، ومنهم: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر، وسيبويه، وغير هؤلاء.

وفي الوقت نفسه يبدي عمار الكلبي تَذَمُّرَهُ من ضيقه بقياس النحو الذي كان من صناعة النحويين، فالنحو وما يَنْجَرُّ عنه من إعراب وتعليل وجَدَلٍ في العامِلِ أَمْرٌ جدِيدٌ على ثقافة العرب في عصرهم ذاك.[43]

ذلك لشيوع اللحن في كلام الموالي والمتعربين منذ فجر الإسلام. فقد روي أن رجلا لحن بحضرة الرسول، فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضل. وقال أبو بكر: لَأَنْ أَقْرَأَ فأسقط أحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أقرأَ فألْحَنَ.

وقد كان اللحن معروفا، بل قد روي من لفظ النبي أنه قال: أنا من قريش ونشأت في بني سعد فَأَنَّى لِي اللَّحْنُ ؟ وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري إلى عمر، فلحن، فكتب إليه عمر: أَنْ اضْرِبْ كاتِبَكَ سَوْطا واحداً.

وهكذا شرعت "السليقة" تتناقص وتتلاشى، أو قُلْ أخذت السليقة تتجزأ إلى أن تتحول إلى لغة تكتسب بالتعلم والمران، فتتؤول إلى اللغة الرسمية أو اللغة الأدبية التي يمكن أن يتفق عليها أبناء الأمة المتواصلة بها.

وعليه يمكن أن نقول: إنَّ اللهجات المتفرعة عن اللغة الأصل في الأمة الواحدة هي التي يسوغ لنا أن نطلق عليها لغة السليقة، لأنها اللغة التي ينطقها الإنسان بيسر، من غير أن يشعر بعبء، أو تكلف في صناعة تراكيبها وجملها، بل من غير أن يكون على وَعْيٍ بقواعدها ونظامها. فاتفاق الأمة على لغة معينة من غير اختلاف أو تحوير فيها قد

يكون مستحيلا. وتعود هذه الاستحالة إلى أسباب شتى، وبعامة فهي اجتماعية، وجغرافية، وبيولوجية، و...

وإذا ثبتت هذه الفرضية فإنه يثبت القول أن اللهجات العربية القديمة كلها هي لغات تنطق بسليقة ذلك العصر، وأن لغة التعامل مع العرب جميعهم كانت تتم وفق اللغة الأدبية الرسمية، وهي التي تمثلها لغة القرآن ولغة الشعر العربي القديم. ومن ثمة ثبت أيضا أن لغة القرآن هي لغة العرب جميعا، كما أن لغة الشعر القديم هي لغة العرب أيضا، لا لغة كانت تحتكرها قريش، أو كانت حكرا على فبيلة أخرى من قبائل العرب.

الإحالات

[1] _ الخصائص:2/ 114 .

[2] _ المصدر نفسه:2/ 114.

[3] _ المصدر نفسه: 117/2.

[4] _ المصدر نفسه: 117/2.

[5] _ (الأحزاب :19). أي: نالوا منكم .

[6] _ النهاية في غريب الأثر : 2/ 391.

[7] _ المصدر نفسه: 2/ 391.

[8] _ شـرح الأشمـوني علـى ألفيـة ابـن مالـك،تحقيق: إبـراهيم شمـس الـدين، ط:01، دار الكتـب العلمية،بيروت،1997م:262/4.

[9] . لسان العرب ، مادة : سلق.

[10] . الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، (ت 392 هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ، المحقق : محمد علي النجار : 2 / 118 .

[11] .كتاب اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي،ت 392، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1972، المحقق :: فائز فارس: 1 / 208 .

[12] . شرح الأشموني:262/4.

[13] . لسان العرب ، مادة : سلق.

[14] . الخصائص : 2 / 118 .

[15] . نفسه :40/1 .

[16] . البقرة ، الآية :31.

[17] . الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ، ص : 6 .

[18] . المصدر نفسه، ص : 7 .

[19] . المصدر نفسه،ص : 8 و 9 .

[20] . المصدر نفسه، ص : 10 .

[21] – المصدر نفسه، ص : 11 .

[22] –الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، (دط) دار الشروق القاهرة ، مصر (دت) : 238/1 .

[23] فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ريمون طحان، ودنيز بيطار طحان،ط.01،دار الكتاب اللبناني، بيروت،د.ت،، ص: 17.

[24] يوسف ، الآية: 31.

[25] . الكتاب: 59/1 .

[26]. تهذيب اللغة : سلق.

[27]. الرعد ، ألآية :29.

[28] . الخصائص :76/1.

[29] . المصدر نفسه :76/1.

[30] . المصدر نفسه:26/2.

[31] . القياس في اللغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1995م، ص:137.

[32] . أصول التفكير النحوي ،ص:247.

[33] . من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ، ط.03، مكتبة الأنجلو مصرية ، 1966م، ص: 19.

[34] . السليقة والخليقة ، تمام حسان ، مقالات في اللغة والأدب ، جامعة أم القرى ، ص: 113 ، 315، 325. نقلا عن : القياس في اللغة العربية، ص: 138.

[3535]. القياس في اللغة العربية ، ص:138.

[36]. القياس في اللغة العربية، ص: 139.

[37] . المرجع نفسه، ص: 139 . 140.

[38] . المرجع نفسه،ص: 142. 143.

[39] . طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي : 17/1.

[40] . المصدر نفسه : 18/1.

[41] . نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، د.ط ،القاهرة ،المكتبة التجارية ،1961م، ص : 26.

[42] . الخصائص : 239/1،240.

[43]. نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ص : 104.